دور السوسيولسانيات في بناء الصورة الأدبية

أ/ الجوهر خالف
جامعة تيزي وزو (الجزائر)

ملخص:

إنّ بناء الصُّورة الأدبية سواء في الرواية أم في جنسٍ أدبيٍّ آخَر يُبيِّن لنا أنّ معظمها مُستمَدّ من المجتمع، حيث أنّ الكاتب يصف الأشياء و الظّواهر فيُصوِّرها ضِمْن محيطه الاجتماعي الذي يتبلْوَر في شكل ثقافة تكون مكتسبة و مستمرة. و تلعب السُّوسيولسانيات دوْرًا هامًّا في بناء الصُّورة الأدبية و في تحديد المعنى الذي تحمله للقارئ باعتبارها ترتكز أساسًا على السّياق و على جملة من العوامل النفسية و الدّينية و التّاريخية و الجغرافية و غيرها التي من شأنها أن تُساعد على فهم اللّغة من جهة، و على تفجير طاقات الأديب من جهة أخرى. هذه هي النّقاط التي تتمحور حولها إشكاليتنا و التي سنتناولها بالتفصيل في مُداخلتنا.

كلمات مفتاحية: السوسيولسانيات – الصورة الأدبية – النص – المعنى – السياق – العوامل الاجتماعية.

تُعتبر الصورة الأدبية تعرُّفًا جماليا على أفكار الواقع و موضوعاته كما هي فَعالِية فنية تُسخِّر أدوات الإنشاء اللُّغوي لتمثيل الموضوع الواقعي و المُتخيَّل، فإنها تُخضِع أداتها الإنشائية لتشكيلة نوعية خاصة تُستَحضر على جهة الضرورة و اللُّزوم، ذلك أنَّ مجاوزة الأداة اللغوية لبِنيتها اللازمة إلى آفاق التصوير الفني تستوجب استحضار تشكيلات معقدة من خصائص الرواية، من شأنها إضفاء الطابع الجمالي المُميَّز على عمل اللغة، و إخراجها مخرَجًا تصويريا يتباين في تمثيل الواقع تباين الخُطط الرِّوائية المتحكِّمة في تفصيله.

و لا ريب أنّ الصورة في هذه المرحلة من إحالتها على الوقائع الحسية و المُجرَّدة تكون قد تخطَّت حلقة الاستبطان العقلي للأداة الإنشائية مُتَبَنِيَّةً التخييل لتبتعد عن الواقع بمسافات تطول أو تقصر تبعًا لطبيعة الرواية و مكوِّناتها الأسلوبية. و في هذه الحال، تغدُو مُهمة تقرير الأوضاع الصورية و تشكيل حيِّز انتظامها جُزأيْن تتحكَّم فيهما التقاليد الفنية المُميِّزة لهذا الجنس الأدبي من حيث تناوُلها للوقائع و طرائق أدائها للدلالات، و تصبح شرطًا ضروريّا لتطوُّر عمل الصورة.

و لما كانت الصورة تنطوي على عملية تنظيم للأشياء و تمثيل لها في الأذهان، فإنّ هذه العملية لا يُمكن أن تقوم إلاّ في المُخيِّلة كقوّة إدراكية و ذلك وِفق معايير تشكيلية ضابطة لعمل الصورة حتى يصير بالإمكان تمييز زوايا نظَرِها بعضها عن بعض، و سبر طاقات التصوير في الأساليب التعبيرية المختلفة، لأنّ الصورة الأدبية تشكيل جمالي لِموْقف من الواقع و هي مَدْعُوَّة لتحقيق هذا المَأرَب بالانصياع لمُقتضيات الرواية، أو ما عبَّر أفلاطون عن بعض

معانيه بـ: طريقة التمثيل(Mode de représentation) [1] ، ذلك أنّ المعنى المقصود بهذا المفهوم هو الأفق الذي من شأنه تأطير الوساطة المتحققة بين الوقائع الحسية و صُوَرِها الفنية، و شحنها بالفعالية و التأثير.

هكذا إذن ترتكز الصورة الأدبية على أسلوب الدِّينامية النصية الذي يُمثّل حصيلة نهائية لتشغيل اللغة في التعبير عن موضوع ما. و النصّ من هذا المُنطلَق يستثمر الإمكانيات الصورية التي ينطوي عليها مُكوِّن الموضوع من جانب، و الطاقة التصويرية التي تُوَفِّرُها اللغة من جانب آخر، فضلاً عن الأبعاد التمثيلية و التجسيدية التي تفترِضها سياقات الرواية بما فيها العوامل الاجتماعية التي يتحدّد بها فحوى الصورة.

و بالتالي، تسعى الدِّينامية النّصية لأنْ تكون نموذجًا مُصَغَّرًا لمنطق العيش فتشُقُّ سياقًا من الخصائص التعبيرية التي تراعي مقتضيات المجتمع الذي يمثّل جُمْهُورها المتلقي و كذا مقتضيات الفضاء و الزمن و الامتداد و الإيقاع و التفصيل و الابتداء و الانتهاء التي تفترضها الرواية.

و تحرص السوسيولسانيات على العودة إلى المعطيات الثقافية للمجتمع لبَلوَرة الموقف الذي تُعبّرعنه الصورة الأدبية، و كلّ العوامل التي تدخل في بناء معناها الكُلِّي تتدرج ضِمن ما يُعرَف بالسياق السوسيولساني حيث لا يُحرَّر نصّ الرِّواية و لا يُفهَم خارج السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه و الذي يُمكِّن الأديب من إيجاد و مضاعفة الوسائل اللِّسانية التي يحتاجها لإنشاء الصُّوَر الأدبية و نقل معانيها الأصيلة لقُرَّائه. و السياق السوسيولساني، في مفهومه الشامل، ينطوي على جميع الظروف اللغوية وغير اللغوية التي تتحكّم في إنتاج و كذلك في فهم النصّ و صُوَرِه، و على القارئ المُحنّك أنْ يستنتج قصد الكاتب و أنْ ينتبه للمعاني الضّمنية و الإيحائية التي يُوَظِّفُها في روايته.

و من الأهمية بمكان أن نُشير إلى دور " العامل البيئي" في التأثير في الأفراد و لغَتهم و خاصة في بناء الصورة الأدبية. فاختلاف البيئات هو اختلاف للأجناس و نُظُمِهِم السياسية و الاجتماعية و الثقافية و هذا ينعكس على طباع الأفراد و وُجْهات نَظَرِهِم و أساليب تفكيرهم. لذلك كان من الطبيعي أن يستمدّ الأديب صُوَرَه و تعبيره من بيئته الاجتماعية، فيُصوِّر الأحداث وِفق ما يقتضيه وَسَطه الاجتماعي لِكونه يُؤثر فيه بصورة واعية أو غير واعية.

فالعربيُّ، على سبيل المثال، يُعبِّر عن تجاربه في الحياة مُستمدًّا ألفاظه و عباراته من البيئة التي يعيش فيها و هي بيئة صحراوية تتميَّز بمناخ حارّ تنمو فيه أشجار مُعيَّنة كالصبَّار والنّخيل، وتُعرف بالخِيام و البوادي ...، بينما البيئة التي تؤثر في طريقة تفكير الأوربي و تعبيره هي بيئة باردة تتميز بالثلوج و الضَّباب و لكنّها تزخر بالمظاهر الحضارية.

و كثيرا ما تتجلى هذه التباينات بين البيئتيْن في نتاجهما الأدبي بحيث نجد مثلًا أنّ الأديب العربي يتَّخذ من البدر رمزًا للجمال، و الأرجح أنّ السير في الصحراء ليلاً جعله يتأمَّل القمر و يُدرك جماله، أما بالنسبة للأديب الأوربي، فرمز الجمال هي الشمس لأنَّها تُبدِّد الغيوم التي تكسو سماء بيئته فتضفي عليها جمالاً بسُطُوعها . و بالتالي، فإنّ التَّعابير اللغوية ما هي إلاّ انعكاسات لحالات داخلية عُبِّرعنها بعوامل خارجية.

كذلك الحال أيضا بين العربي و الفرنسي في تعبيرهما عن "جدوى القيام بأمر ما "، فالأول يستعمل الصُّورة التالية: " كمن يحمل التمر إلى هجر"، كون بيئته الصحراوية تزخر بإنتاج التمور، بينما يقول الثاني: Porter l'eau à la Seine وla Seine هو نهر كبير بفرنسا و دائم الجريان. نُلاحظ إذًا أنّ البيئة فعلاً تفرض على الأُدَباء استخدام وسائل لغوية مختلفة للتعبير عن التجربة نفسها . لذلك يطرح غياب السياق السوسيولساني و الثقافي في النصّ إشكالية تعذُّر نقل المعنى الحقيقي بكامله.

و تهتمّ السُّوسيولسانيات أيضا بدور" ثقافة الفرد" في تجسيد أفكاره و انفعالاته على شكل تعبير لساني يُميّز كلّ صُورة أدبية . فهي بالنسبة للأديب داخلة في شخصيته إذ تساعده على الإبداع و الابتكار و تعزيز قُدُراته اللغوية لتفجير طاقاته الأدبية، و بفضلها، يُضفي على أعماله دلالات شعرية خاصة به. فالأديب لا يصف تجربةً ما مِن منظور اجتماعي فحسب، بل من منظور وجداني، لأنّ التجربة غالبا ما تصدر عن باعث ذاتي خفيّ و ترتبط بموقف الإنسان من الوجود.

لهذا نجد أنّ كل أديب ينفرد بنظام من الصُّوَر التي تستمدُّ معانيها من جوهره الفني والتي تعكس شخصيته الأدبية. و لفهم تلك الصُّوَر، لا يكتفي المتلقي بتحليلها لسانيا و بتحليل بيئة كاتبها، إذ يجب عليه أن يتمتع بحسٍّ مرهف و تجربة كبيرة عن النفس البشرية من جهة، و بالقدرة على كشف دوافع الأديب و أبرز التيارات التي تنازعت نفسيته أثناء الكتابة من جهة أخرى . و هذا يعني دراسة شخصية الأديب دراسة نفسية، و لذا يُقال أنّ الأديب لا يَفهم خلجاته إلاّ أديب مثله.

تتأثر اللغة أيضا " بالدّيانات" كجانب راسخ في المجتمعات، حيث نجد فيها الكثير من التعابير المستمَدّة من الكُتب السماوية، لأنّ كل جماعة بشرية تتأثر بالمذاهب الدينية التي تَتَّبِعها، و كذلك بالشخصيات الدينية التي تكتسب دلالات لُغوية، فيُشبَّه مثلاً العادل في الإسلام بالخليفة عمر بن الخطاب **(رضي الله عنه)**، و الحكيم بلقمان...

و لكنَّه رغم كل هذه الاختلافات الموجودة بين اللغات، تُقرّ السوسيولسانيات بوُجُود عوامل تشترك و تتشابه فيها عند تقييم الواقع، و تُدعى "كُليّات اللغة"Les Universaux du langage. و إنّ وجود العموميات في اللغة دليل على أنّ البشر متشابهون في إدراكهم بما يحيط بهم، و على أنّهم يجزّبون نفس العالم المادي .و عليه تجمعهم مفاهيم مشتركة نتيجة لعدة عوامل كَوْنية و نفسية مفادُها أنّ البشرية تقطن كوكبًا واحدًا، فما مِن أَحَد لا يعرِف الشمس و القمر و السّماء و البحر و غيرهم أو لم يشعر يومًا بالخوف و الحزن والفرح و النّدم و غيرهم.

و تشترك الجماعات البشرية أيضا في بعض المفاهيم الخاصة بالأخلاق والتربية والقِيَم كفعل الخير و استبعاد الشرّ و الحثّ على العمل و النهي عن الكسل وغيرها، و في مجموع الاعتقادات بحيث يؤمن كل مسلم وكل مسيحي مثلاً بوجود خالقٍ للكون و بالجنة و النار و بالقضاء و القدَر و في التاريخ المرتبِط، إذ لكلّ الحضارات ماضٍ تعيش على أمجاده و حاضر تبنيه، وتُعتبر الروايات الشعبية أبرز مثال للأدب العالَمي الذي يروي تاريخ الأمم.

و في ختام هذه المداخلة يظهر لنا أنّ الصورة الأدبية و إنْ كانت في الأصل مبنية على جماليات الأسلوب، فهي مرتبطة أيّما ارتباط بالسيّاق الاجتماعي. و تلعب السوسيولسانيات دورًا فعّالاً في إثرائها و جعلها متعددة الآفاق من حيث شحنها بمعاني كثيرة و دلالات متنوّعة . و الأديب في تصويره للواقع يُوظّف الموارد اللغوية لغايات إبداعية و هو يشعر بمدى الارتباط الثقافي و الاجتماعي للكلمات ليعكس الحياة لأفراد مجتمعه أو لأفراد مجتمعات مُغايِرة فيُؤثِّرُ و يتأثّرُ و مِن هنا ينمو التبادل و الاحتكاك السوسيولساني.

الهامش:

[1] يتّخذ هذا المفهوم في نظر أفلاطون ثلاثة أشكال: إما الشكل السردي الصّرف Halpedièges، أو الشكل الإيمائي Diamimèsos الذي يقوم على الحوار بين الشخصيات (كما في المسرح) أو الشكل المزدوج التناوُبي الذي يتم استعماله كلّما قُرِن السرد إلى الحوار. (المزيد من التفاصيل حول هذا المفهوم ضمن كتاب: جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، البيضاء 1986 ، ص.22-32).

المراجع:

- الجوهر خالف (2008)، إشكالية الصورة في الترجمة الأدبية: دراسة تحليلية لحكاية سندباد البحري من " ألف ليلة و ليلة "، مذكرة ماجستير بمعهد الترجمة، جامعة الجزائر2.
- جنيت، جيرار (1986)، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، البيضاء.
- راي وليام (1987)، المعنى الأدبي، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة و النشر، وزارة الثقافة و الإعلام، بغداد.
- زيما بيير (1991)، النقد الاجتماعي: نحو علم اجتماع للنص الأدبي، ترجمة: عايدة لطفي، مراجعة: أمينة رشيد و سيد بحراوي، دار الفكر، القاهرة.
- CALVET, Louis-Jean (1993), La sociolinguistique, Paris, PUF.